من رحلات القرن الماضي

انجـــلترة
فى نظر سائح عربى

للأستاذ محمـــد عبد الغنى حسن

تختلف أساليب الرحالين والسياح فى كتبهم تبعاً لاختلاف أمزجتهم وطبائع نفوسهم . فمنهم الملتزمت الوقور كابن جبير، ومنهم الناقد اللاذع كعبد اللطيف البغدادى — وخاصة حينما نزل مصر ورأى فيها ما لم يعجبه . ومنهم المحدث المتفضل بالحديث عن نفسه والدوران حول شخصة كابن بطوطة . ومنهم الذى يدرس الطبائع والظواهر كالمسعودى . ومنهم الدقيق الملاحظة المستفيد مما تقع عليه عينه ليقدمه إلى بلاده بعد عودته كالشيخ رفاعة الطهطاوى . ومنهم الذكى المتوقد الذى يتتبع كل أمر ، ويتقصى كل شىء ، وينظر إليه من وجهيه . ولا تفوته النكتة اللاذعة والفكاهة المرة — أو الحلوة — والنادرة المكشوفة ، والعبارة المفضوحة كأحمد فارس الشدياق صاحب مجلة الجوائب . والشدياق من رحالة العرب فى القرن التاسع عشر . وهو قرن اشتهر فيه منهم رفاعة الطهطاوى وأمين باشا فكرى وأحمد زكى باشا . ولكنهم على فضلهم لا يرتفعون إلى منزلة الرحالة الأولين من العرب .

ومن كتاب الرحلات فى القرن العشرين لبيب البتانونى بك فى رحلاته إلى الحجاز وأسبانيا وأمريكا الجنوبية . وأمين الريحانى فى رحلته إلى بلاد العرب . وأحمد حسنين باشا فى رحلته إلى صحراء ليبية . والدكتور عبد الوهاب عزام فى رحلاته إلى البلاد الشرقية ومحمد ثابت فى رحلاته المتعددة حول العالم ، وأحمد عطية الله فى رحلاته إلى أوربا وفؤاد صروف فى مشاهده فى العالم الجديد

ولكلّ واحد من هؤلاء سبيله فى الوصف ، إلا أنهم يشتركون جميعاً فى طابع الجد الذى يميز كتبهم

ولكن الشدياق غير هؤلاء جميعاً . فالمزح طبع أصيل فيه يشهد بذلك كتابه (الساق على الساق) . وهو كتاب لم يخل من مجون أخذه عليه أهل الفضل والنظر .

وللشدياق رحلتان : أولاهما « الواسطة فى معرفة أحوال مالطة — وضعها سنة ١٨٣٤ » . وثانيتهما « كشف المخبا عن فنون أوربا — طبع سنة ١٨٥٤ »

وقد أعلن المؤلف فى مقدمة رحلتيه أنه يكتب عن حق ويروى عن صدق ، فلم يمل به هوى أو غرض إلى انحراف أو ميل . أو تفضيل قوم على قوم . وإنما يكتب بحسب ما ظهر له أنه الصواب

ولكن المتصفح لكتابه يرى فيه تحاملا وتجنياً . فهو متحامل على لندن . ولعل ضبابها ودخانها أثرا فى مزاجه ، وهو رجل مرهف الحس ، سريع الثقلة والحركة . فلم يعجبه حبسه فى بيت انجليزى هادىء أمام موقد يرمى باللهب . وآثر الانطلاق إلى بعض عواصم أوربا الموسومة بحياة خارج الدور لا تسجن بجدران ا ولا تثقل بوجوه دائمة من السكان .

وفى رحلة الشدياق إلى انجلترة من الحقائق والاحصاءات الدقائق والدرس الواسع ما لا يستهان به . وكان يسعفه فى ذلك الرجوع إلى الوثائق الرسمية . ومن هنا كان لكتابه قيمة تاريخية ولمشاهداته قيمة من ناحية الاستقصاء ، وفيها كثير من الموازنة والظرف والفكاهة ، والسخرية اللاذعة التى لازمت الشيخ الأشيب حتى على بياض لمته ...

فالقرية الانجليزية الصامتة المتزمتة التى وصفها الشدياق هى هى التى نراها اليوم (ليس فيها مواضع للهو والحظ ، وإذا أرادوا اللهو عمدوا إلى أجراس الكنيسة يضربونها فتقوم عندهم مقام آلات الطرب) وذلك حق من الشدياق ؛ فالريف الانجليزى على جماله يخيم على قراه هدوء حزين لا يسر الطبائع المرحة التى تجد فى الحركة والصخب أنسا وراحة .

والشدياق يصف من الريف أرضه وسماءه وكل شىء فيهما ... حتى البقلة الناجمة والزهرة الحالمة ... ويوازن بين بقل وبقل ، وزهر وزهر . ويدرك الفرق بين أزهار مالطة وشبيهاتها فى فرنسة وانجلترة . ويصف حيوانه وصفاً دقيقاً . ولا تفوته النكتة فيقول (ومما من الله به على هذه البلاد

— يعني انجلترة — أن ليس فيها حيات ولا عقارب ولا سوام أبرص ، ولا ابن آوى يعوى فى الليل ، ولا نمس يأكل الدجاج ولا بعوض يمنع من النوم ، ولا براغيث فى الربيع إلا نادرا)

والشدياق حين يلاحظ الأمور الجارية فى رحلاته يردها إلى علل معقولة طبيعية أو اجتماعية . فالانجليزى يتخطى السبعين ولا يخط الشيب رأسه ولا عارضه . على عكس ما هو حادث فى الشرق . ويرد ذلك إلى أن الشيب سببه الهم والخوف وتوقع المساءة من أولى الأمر وذلك معدوم فى انجلترة لفشو العدل بينهم واطمئنان الناس إلى حقوقهم

ويلاحظ رحالتنا العربى فرقا بين ملامح الرجل المدنى وأخيه القروى فى انجلترة . فالأول ضاحك السمات ، مشرق البسمات . والثانى كثير العبوس قليل البشاشة لا يستخفه طرب ولا يستثيره لهو إلا فى القليل . ويرد رحالتنا ذلك إلى حياة اللهو فى المدن فينشأ الطفل على الطرب والخفة والبشاشة . أما القرية فقلّ أن تجد فيها ملهى قائماً أو ملعباً دائماً . . ومن هنا نشأ أطفالهم على الجد والعبوس والتوقر

وعيب الشدياق فى رحلته كثرة الاستطراد . وذلك عائد إلى ازدحام المعانى والأفكار والمعرفة عليه . فهو يروى ويصف ما شاهد ويؤيد ذلك بواقعة حال أو عبارة من مقال . أو يذكر بيتاً من الشعر أو لطيفة من الأدب أو حكاية عن العرب . ثم يعود بعد لف طويل إلى موضوعه الأول

وهو خبير فى رحلاته بكل شىء . تراه عارفاً بالطعام ، ذواقة لألوانه ، خبيراً بأطايبه ناقداً لمعايبه . . ولهذا لم يعجبه الطعام الانجليزى على بساطته

وتراه خبيراً بالنساء طبيباً لأدوائهن ... دارساً لخبايا نفوسهن . يعرفهن بالرمز والأشارة ، كما يعرفهن بالقول والعبارة . ويقدّر جمال المرأة أحسن تقدير . . . ويؤثر العين والفم فى وجه المرأة لأنهما يتحركان فيحركان الوجد ويثيران الشوق . ولا يذهب مع من قال (أحب منها الأنف والعينان) بل يذهب مع الراجز الآخر حيث يقول : يا ليت عيناها لنا وفاها ... !

وتذهب به ملاحظته بعيداً فيتتبع الكتاب والشعراء الانجليز فى وصف محاسن المرأة . ويلحظ الفرق بيننا وبينهم فى التشبيه والاستحسان . فهم لا يشبهون العيون بالسيوف كما يفعل شعراؤنا ، ولا يشبهون المرأة بالشمس والقمر كما نفعل نحن . ولا يشبهون جيدها بجيد الغزال ، وإنما يشبهون الجيد بالمرمر أو يقتصرون على وصفه بالبياض . ويشبهون المرأة بالنجم . ولا يستحسنون الفلج فى الأسنان كما نستحسنه نحن . ويستطرد إلى غسل النساء وجوههن بالصابون فينقله ذلك إلى أول من عمل الصابون . وإلى أول عهد استعماله فى لندن سنة ١٥٢٤ ، وإلى مقدار ما يستهلكه الانجليزى منه فى العام تبعاً لما وصل إلى علمه من احصاءات

ويصف تقدير المرأة الانجليزية للهدية وتعظيمها لها مهما قل شأنها وتفه أمرها . فلا تراها إلا مثنية على المهدى معترفة بحسن صنيعه . مبالغة فى وصف الهدية وتقديرها حتى يتوهم المهدى أنه صار رابعاً لحاتم الطائى وهرم بن سنان وكعب بن مامة من أجواد العرب ...

ولا يفوته وصف الفلاحة الانجليزية وهى تعمل فى الحقل ؛ حتى ليشفق عليها من البرد يمض جسمها ، ومن شمس السيف تلوح وجهها .. ويأسف لهذا الجمال الذى ترخصه مزاولة الأعمال. وينحى باللائمة على الرجال الذين يحوجون المرأة إلى هذا الابتذال

ولو عاش الشدياق فى عصرنا هذا ورأى المرأة الانجليزية فى المصانع وفى لباس الجنود ، وفى طبقات الجو وحُبُك السماء ، ولو رآها تلعب دورها فى هذه الحرب الضاربة فماذا كان يقول ؟

ولكن النكتة لا تفوته فى هذا المقام فيضع شعرا فى الفلاحة الانجليزية يقول فيه :

فلو برزت سواعدهن يوماً لشاعرنا لأنشد من ذهول
بربات الحقول يحق لى أن أشبب لا بربات الحجول ...

كما لا تفوته النكتة البديعية فيعمل جناساً بين الحقول والحجول

ويثنى الشدياق على المرأة الانجليزية كزوجة صالحة وربة بيت تدير شئونه وتصرف أموره على أحسن تدبير وأكمل تصريف . ويقرر (أن من تزوج بإحداهن فقد هنأه العيش وقرت عينه بما يراه من نظافة منزله مع الاقتصاد فى النفقة وراحة البال من الأسباب الباعثة على القيرة)

ولقد قر هو نفسه عيناً بزوجة انجليزية صالحة إلا أنه لم ينجب منها . ولكنه أنجب من غيرها ثلاثة ذكور أكبرهم سليم الشدياق الذى ظفر بثقة السلطان عبدالحميد واحتل فى الآستانة مكاناً رفيعاً .

محمد عبد الغنى حسن